

القسم الثاني

النظام التعليمي في الاسلام

دور العقل في عملية التحصيل * ملحق : حديث الامام موسى بن جعفر في العقل والعلم * نظرية التعليم في الاسلام * «المدرسة» في النظام الاجتماعي * التعليم والعدالة الاجتماعية في الاسلام .

دور العقل في عملية التحصيل

ذكر ثقة الاسلام محمد بن يعقوب الكليني في مقدمة كتابه (اصول الكافي) خلاصة رأي الاسلام في فضائل العلم واهمية العقل قائلاً: (ان العقل هو القطب الذي عليه المدار وبه يحتج وله الثواب وعليه العقاب)¹. وهذا قول يفسر الحديث الوارد عن الامام الصادق «ع» في اهمية العقل عند الخالق عز وجل حيث خاطبه بقوله: (. وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو احب اليّ منك ولا اكملتك الاّ فيمن احب اما اني اياك آمر ، واياك انهي واياك اعاقب ، واياك اثيب)². ويقرّب ما ورد ايضاً عنه في استدلاله على اهمية العقل في ادراك عظمة الخالق: (ان اول الأمور ومبدأها وقوتها وعمارتها التي لا ينتفع شيء الا به ، العقل الذي جعله الله زينة لخلقه ونوراً لهم . فبالعقل عرف العباد خالقهم ، وانهم مخلوقون ، وانه المدبر لهم ، وانهم المدبرون ، وانه الباقي وهم الفانون؛ واستدلوا بعلومهم على ما رأوا من خلقه ، من سمائه وارضه ، وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، وبان له ولهم خالقاً ومدبراً لم يزل ولا يزول ، وعرفوا بها الحسن من القبيح ، وان الظلمة في الجهل ، وان النور في العلم ، فهذا ما دلهم عليه العقل)³.

وهذا التعظيم والتكريم لاهمية العقل في حياة الفرد ، ليس وليد صدفة ، فالاسلام لا يمجد العقل باعتباره اداة لاستيعاب المعلومات وتخزينها ، ثم استرجاعها وتحليلها فحسب ، بل يعتبره اهم اداة لمعرفة الخالق عز وجل ، ولولاه لاصبح الانسان بهيمة اخرى لا تعي من واقعها ولا تهتم بأمر مثل اهتمامها بغرائزها الحيوانية .

ولكن العقل البشري بدّل المعادلة الحيوانية وقلبها لصالح الانسان ، فاصبح هذا الكيان الكريم بحكم عقله مكلفاً بالمسؤوليات الشرعية ومحاسباً عليها . واصبح العقل ، الحجة التي يحتج بها الله عليه يوم القيامة . واذا كان العقل بهذه المتزلة الخطيرة في حياة الانسان ، فما هي ماهيته وما هي طبيعته؟ وجواباً على هذا السؤال ، نقول ان الحكماء اجمعوا على ان العقل مرآة واقعية لتعقل الاشياء وفهمها ، ومحطة ادراك الخير والشر والتمييز بينهما ، واعتبروه استعداد النفس لتحصيل النظريات والابتكارات . وبالاجمال فللكي يدرك العقل ويستوعب المعارف التي ينتفع بها ، فلا بد للفرد من الاجتهاد في تنمية قوة ادراكه للخير والشر ، والتمييز بينهما عن طريق علوم الطبيعة والدين والاخلاق وما يتعلق بهما من معارف وغايات . فحينما يحاول العقل انشاء العلوم النافعة للانسان في حياته العملية ، فانه يستخدم طاقته الجبارة لانشاء نظرية معاشية تدله على تعلم

¹ الكافي ج 1 ص 9.

² الكافي ج 1 ص 10.

³ الكافي ج 1 ص 29.

العلوم التطبيقية لتدر عليه شتى انواع المنافع ، وتيسر له سبل العيش الانساني الكريم ، كعلوم الزراعة والصناعة والطب والهندسة والفضاء . ولا شك ان ترجمة الافكار التي ينشئها العقل ويحاول تطويرها وتنميتها لا بد ان تتم عن طريق خاص يشترك فيه جميع الافراد في النظام الاجتماعي ، وهو النطق .

فيمتيز تحصيل العقل وترجمة الافكار التي يحملها بالنطق ، فالانسان كيان ناطق ، وهذا النطق الذي يمثل رمز التفاهم بين الناس يميز هذا الكائن المفكر عن غيره من العجاوات . وبطبيعة الحال ، فان علوم اللغة وما يتفرع عنها من معارف وحقول ، تمثل قابلية العقل على ترجمة الافكار الخافية الى رموز مسموعة تستفيد منها الانسانية في تعاملها الاجتماعي جيلاً بعد جيل؛ وان استعداد النفس لتحصيل النظريات والفرضيات ، يساهم في تطوير العلوم التي تخدم مصلحة الانسان . فلو اراد العالم التجريبي وضع نظرية تتناول حركة الالكترونات في الذرة مثلاً ، فما عليه الا ان يفترض افتراضاً نظرياً يتناول فيه حركة تلك الشحنات ، ويفصلها تفصيلاً نظرياً . ثم يقوم بعد ذلك بتجارب خاصة لاثبات صحة فرضيته ، فاذا تم له ذلك بالتجربة والخطأ تطورت فرضيته القائمة على مجرد الظن الى نظرية قائمة على اساس ثبوت الحقائق . وهذا الاستعداد النفسي في انشاء الافتراض وتحصيل النظرية يرفع العلم التجريبي من المستوى النظري المجرد الى مستوى عال من الدقة التحريبية والمهارة والاتقان .

وخلاصة القول ، فان الانسان العاقل المدرك يحتاج في حياته العملية الى اربعة اصناف من العلوم حتى يستطيع ان يكون عضواً نافعاً فعالاً في النظام الاجتماعي . الاول : علوم اللغة وما يتعلق بها من معارف ، فتعتبر عنصراً اساسياً من عناصر حفظ الاجتماع الانساني وتنميته ، لانه عن طريقها يتم التفاهم والاتصال بين الافراد في النظام الاجتماعي . الثاني : علوم الدين والاخلاق وما يتعلق بهما من معارف ، وهذا العنصر اساسي في استقرار النظام الاجتماعي ونشر العدالة الاجتماعية بين جميع الافراد . الثالث : العلوم النظرية ، وهي النظريات والفرضيات التي يحتاجها الانسان كقاعدة يبني عليها بناءه العلوي في العلوم التحريبية . الرابع : العلوم التطبيقية ، وهي ثمرة العلوم الطبيعية التي يعتصر الانسان بواسطتها كل ما يتمكن اعتصاره من خيرات الارض ، بشكل يمكنه من توفير وتيسير سبل العيش لكل افراد المجتمع الانساني .

وقد اكدت الروايات المروية عن ائمة اهل البيت «ع» على حاجة الانسان الى تلك العلوم والى ضرورة تعلمها ، من اجل المصلحة الاجتماعية . فعلى مستوى الصنف الاول ، ورد قول الامام جعفر بن محمد «ع» : (تعلموا العربية فانها كلام الله الذي يكلم به خلقه)⁴ . وعلى مستوى الصنف الثاني ، ورد في وصية الامام علي بن ابي طالب لابنه الحسن (عليهما السلام) : (وان ابدأك بتعليم كتاب الله عز وجل

⁴ بحار الانوار ج 1 ص 212.

وتأويله ، وشرائع الاسلام واحكامه ، وحلاله وحرامه لا اجاوز ذلك بك الى غيره) ⁵ . وعلى مستوى الصنف الثالث ورد قول الامام علي بن ابي طالب ايضاً : (لا علم كالتفكير . . .) ⁶ . وعلى مستوى الصنف الرابع ورد عن الامام جعفر بن محمد «ع» ما يدعو الى التعليم المهني : (. . . فكل ما يتعلم العباد او يعلمون غيرهم من صنوف الصناعات مثل الكتابة والحساب والتجارة والصياغة والسراجة والبناء والحياكة والقصارة والحياطة وانواع صنوف الآلات التي يحتاج اليها العباد التي منها منافعهم وبها قوامهم وفيها بلغة جميع حوائجهم فحلال فعله وتعليمه والعمل به وفيه ولنفسه او لغيره ، وان كانت تلك الصناعة وتلك الآلة قد يستعان بها على وجوه الفساد ووجوه المعاصي ويكون معونة على الحق والباطل فلا بأس بصناعته وتعليمه نظير الكتابة التي هي على وجه من وجوه الفساد من تقوية معونة ولاة الجور ، وكذلك السكين والسيوف والرمح والقوس وغير ذلك من وجوه الآلة التي قد تصرف الى جهات الصلاح وجهات الفساد وتكون آلة ومعونة عليها فلا بأس بتعليمه وتعلمه واخذ الاجر عليه وفيه العمل ، والعمل به وفيه لمن كان له فيه جهات الصلاح من جميع الخلائق ، و محرّم عليهم فيه تصريفه الى جهات الفساد والمضار ، فليس على العالم والمتعلم اثم ولا وزر لما فيه من الرجحان في منافع جهات صلاحهم وقوامهم به وبقائهم . . .) ⁷ . ويستفاد من هذه الروايات جميعاً ، ان الاصل في العلوم الاجتماعية والتجريبية والدينية ، هو بناء النظام الاجتماعي ، وبناء الفرد بشكل يجعله مرتبطاً بالخالق سبحانه ، اولاً . وقادراً على تأدية التكاليف الشرعية ، ثانياً . وقادراً على اشباع حاجاته الاساسية ، ثالثاً .

وقد شجع الاسلام استخدام العقل بما يتناسب مع الاطار الفكري التي جاءت به الشريعة الاسلامية . فقد ميزت الشريعة بين العلوم الضارة والعلوم النافعة ، فجازت وشجعت على تعلم وتعليم العلوم النافعة ، ومنعت تعلم العلوم الضارة . وأشارت الى ان العلوم النافعة ، هي التي تدفع المفسد ، وتجلب المصالح للناس . فاذا كان من ثمرة علوم الهندسة المدنية مثلاً ، بناء السدود التي تسيطر على مستويات كميات الماء في الاوقات الاستثنائية ، فان الاسلام يشجع الافراد على تعلمها واتقانها ، والابداع في تطويرها بما يتناسب مع حاجة الافراد في النظام الاجتماعي . واذا كانت العلوم الطبية تساهم في شفاء الافراد من الامراض ، فان الدين ، يوجب تعلم هذه العلوم ، والتقدم في تطبيقها ، وتنفيذها لمعالجة الناس . اما اذا كان هدف العلوم اضرار الناس واتلاف محاصيلهم ومصالحهم ، كنشر السموم او تلويث البيئة بحيث يشكل ضرراً على الافراد ، فانه يمنع

⁵ بحار الانوار ج 1 ص 19 .

⁶ بحار الانوار ج 1 ص 179 .

⁷ تحف العقول ص 249 .

ذلك ويحرمه ، كما ورد في حديث الامام جعفر بن محمد في تحريم العلوم التطبيقية التي تؤدي الى الفساد والضرر .

وربما يستفاد من مقتضى نص قوله تعالى في خطاب النبي (ص) : (وَقُلْ رَبِّي زِدَنِي عِلْمًا)⁸ ، زيادة على ما قيل بأمر الله النبي «ص» بعدم التعجيل بقراءة القرآن وقت نزول الوحي ، ان الاسلام لم يقيد العلم بعلوم الدين بل اطلق عبارة العلم لتشمل كل العلوم التي تنفع الانسان في حياته العملية والدينية . ومنها علوم الطب والتمريض والهندسة والفيزياء والكيمياء والفلك والتربة والجغرافية والتربية التي تساهم جميعاً في تيسير حياة الانسان . لظهور النص القرآني واطلاقه اولاً ، وللنصوص الشرعية الأخرى التي تعضد هذا الرأي ، ثانياً .

وربما نجد في حديث الامام موسى بن جعفر «ع» (ص 464) ما يسند ، مع كونه مرسلًا ، الفكرة الاساسية للاسلام حول دور العقل في الحياة الاجتماعية . فلم يخلق العقل لمعرفة الصانع جل وعلى فحسب ، بل جعل وسيلة لتحصيل العلم الذي يؤدي الى منفعة الافراد وتسهيل امور حياتهم . ولم يقيد الشارع العلم بالعلم الديني فحسب ، بل اطلق معنى العلم ليشمل كل المنافع التي يستفيد منها الفرد في حياته الانسانية . فلم يهمل الاسلام الحث على طلب العلوم غير الدينية التي يتكامل معها المجتمع الانساني ، ويتوجه بعد سد حاجاته الاساسية الى معرفة الخالق وعبادته والتقرب اليه بشئ وسائل التقرب . فقد ورد عن الامام علي بن ابي طالب «ع» قوله : (ان من علامة العاقل أن يكون فيه ثلاث خصال : يجيب اذا سئل ، وينطق اذا عجز القوم عن الكلام ، ويشير بالرأي الذي يكون فيه صلاح اهله)⁹ . وعموم الاشارة بالرأي النافع الذي فيه صلاح القوم او الاهل ، ينطبق على كل امر فيه مصلحة انسانية ، تجريبية كانت أو اجتماعية .

ملحق : حديث الامام موسى بن جعفر(ع)

في العقل والعلم

وفي حديث الامام موسى بن جعفر «ع» هذا الذي اختصرناه بما يناسب هذا الكتاب اشارة الى دور العقل والعلم في العبادة والتفكير ومنفعة الناس . يقول الامام «ع» في خطابه لهشام بن الحكم : (ان الله تبارك وتعالى بشر اهل العقل والفهم في كتابه فقال : (فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ

⁸ سورة طه: الآية 114.

⁹ الكافي ج 1 ص 19.

هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأَوْلَيْكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ¹⁰ . ان الله تبارك وتعالى اكمل للناس الحجج بالعقول ، نصر النبيين بالبيان ، ودلهم على ربوبيته بالدلة ، فقال : (وَأَهْلُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)¹¹ .

وقد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته بان لهم مدبراً ، فقال : (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)¹² . وقال : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)¹³ . وقال : (وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)¹⁴ . وقال : (يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)¹⁵ . وقال : (وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٍ ، وَنَخِيلٍ ، صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)¹⁶ . وقال : (وَمِنْ آيَاتِهِ يَرْيُكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)¹⁷ . وقال : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ الْأَشْرَكَاءَ بِهِ شِئْنَا وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَمَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)¹⁸ . وقال : (هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)¹⁹ .

¹⁰ سورة الزمر: الآية 17-18 .

¹¹ سورة البقرة: الآية 163-164 .

¹² سورة النحل: الآية 12 .

¹³ سورة غافر (المؤمن): الآية 67 .

¹⁴ سورة الحاثية: الآية 4 .

¹⁵ سورة الحديد: الآية 17 .

¹⁶ سورة الرعد: الآية 4 .

¹⁷ سورة الروم: الآية 24 .

¹⁸ سورة الانعام: الآية 151 .

¹⁹ سورة الروم: الآية 28 .

ان العقل مع العلم فقال : (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) ²⁰ . ثم ذم الذين لا يعقلون فقال : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمِ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ) ²¹ . وقال : (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) ²² . وقال : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ) ²³ . وقال : (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) ²⁴ . وقال : (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) ²⁵ . وقال : (وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ) ²⁶ .

ثم ذكر اولي الالباب باحسن الذكر، وحلاهم باحسن الحلية، فقال : (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) ²⁷ . وقال : (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) ²⁸ . وقال : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) ²⁹ .

وقال : (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى أَلَمْ يَتَذَكَّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ) ³⁰ . وقال : (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْأَحْرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ أَلَمْ يَتَذَكَّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ) ³¹ . وقال : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) ³² . وقال : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي

²⁰ سورة العنكبوت: الآية 43.

²¹ سورة البقرة: الآية 170.

²² سورة البقرة: الآية 171.

²³ سورة يونس: الآية 42.

²⁴ سورة الفرقان: الآية 44.

²⁵ سورة الحشر: الآية 14.

²⁶ سورة البقرة: الآية 44.

²⁷ سورة البقرة: الآية 269.

²⁸ سورة آل عمران: الآية 7.

²⁹ سورة آل عمران: الآية 190.

³⁰ سورة الرعد: الآية 19.

³¹ سورة الزمر: الآية 9.

³² سورة ص: الآية 29.

الآلِبابِ³³ . وقال : (وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)³⁴ .

ان الله تعالى يقول في كتابه : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)³⁵ ، يعني : عقل ، وقال : (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)³⁶ ، قال : الفهم والعقل . ان لقمان قال لابنه : «تواضع للحق تكن اعقل الناس ، وان الكيس لدى الحق يسير ، يا بني ان الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها عالم كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله ، وحشوها الايمان وشراعها التوكل ، وقيّمها العقل ، ودليلها العلم ، وسكانها الصبر» . ان لكل شيء دليلاً ودليل العقل التفكير ، ودليل التفكير الصمت . ان لله على الناس حجتين : حجة ظاهرة وحجة باطنة ، فاما الظاهرة فالرسل والانبياء والائمة (ع) ، واما الباطنة فالعقول .

كان امير المؤمنين(ع) يقول : ما عبد الله بشيء افضل من العقل ، وما تم عقل امرىء حتى يكون فيه حصال شتى : الكفر والشر منه مأمونان ، والرشد والخير فيه مأمولان ، وفضل ماله مبذول ، وفضل قوله مكفوف ، ونصيبه من الدنيا القوت ، لا يشبع من العلم دهره ، الذل احب اليه مع الله من العزم مع غيره)³⁷ .

نظرية التعليم في الاسلام

ويختصر الاسلام نظريته في التعليم باول كلمة وحي من الباري عز وجل نزلت على صدر الرسول العظيم محمد (ص) ، وهي كلمة : (اقرأ . . .) . ومع ان هذه الجملة في الآية الكريمة تفيد خصوص القراءة للرسول (ص) الا ان مقتضاها اكبر من ذلك . فتوجيه صيغة الامر بالقراءة يساعد المكلفين على فهم الاحكام الشرعية وتطبيقها ، ويساعدهم ايضاً على قراءة القرآن والتفكير في آياته العظيمة ، وعلى تنشيط عقولهم لتطوير الحياة الانسانية في مختلف مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية . وفي الحديث التالي المروي عن الامام علي بن ابي طالب (ع) دلالة على ان طلب العلم والتفقه يشمل المسلمين عموماً ولا يخص فئة دون اخرى ، حيث يقول(ع) : (ايها الناس اعلموا ان كمال الدين طلب العلم والعمل به ، وان طلب العلم اوجب عليكم من طلب المال . ان المال مقسوم بينكم مضمون لكم ، قد قسّمه عادل بينكم وضمنه ، سيفي لكم به ، والعلم مخزون عليكم عند اهله قد أمرتم بطلبه منهم فاطلبوه ، واعلموا ان كثرة المال مفسدة للدين مقساة للقلوب وان كثرة العلم والعمل به مصلحة للدين سبب الى الجنة ، والنفقات تنقص المال ، والعلم يزكو على

³³ سورة المؤمن: الآية 53-54.

³⁴ سورة الذاريات: الآية 55.

³⁵ سورة ق: الآية 37.

³⁶ سورة لقمان: الآية 12.

³⁷ الكافي ج 1 ص 13.

انفاقه³⁸ . فكمال الدين اذن ، حسب الرواية ، والسمو في فهم الاحكام الشرعية وعللها ، لا يتم الا عن طريق طلب العلم والاجتهاد في تحصيله . وبذلك فان الاسلام وضع العلم على سلم الحاجات البشرية التي ينبغي اشباعها .

وليس هناك ادنى شك من أن الاعمال التي يقوم بها الفرد في حياته العملية تحتاج الى كمية من العلوم ، تقدرها المصلحة الاجتماعية . فالطب وتخطيط المدن وجمع الحطب مثلاً تحتاج الى علوم تتناول تلك الاختصاصات . فعلم التشريح والعقاقير والكيمياء يطور علم الطب ، ودراسة القياسات ومعرفة علم المساحة وتربة الارض ومواد البناء يساعد في علم تخطيط المدن ، ودراسة الاشجار واخشابها وطريقة قطعها واسلوب نقلها يساعد الافراد المهتمين بعملية جمع الحطب واستخدامه في عملية توليد الطاقة . وفي كل تلك الامثلة يكون العلم الاختصاصي هو المحور والمدار في تطوير المهنة التي يقوم بها العامل المختص . وبطبيعة الحال ، فان الاختصاص ، ليس القطب الوحيد الذي يعرضه الاسلام ضمن اهتمامه بالعلوم التطبيقية ، بل يطرح فكرة التسخير ايضاً ، باعتبارها منهجاً عملياً للتفاعل الاجتماعي . فجوهر فكرة التسخير يقول بان الافراد مسخرون بالاصل لخدمة بعضهم البعض ، فقد ورد قوله تعالى بهذا الخصوص : (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا)³⁹ . وهي اشارة الى ان النظام الاجتماعي لا يجبي الا عن طريق تسخير جهود الافراد الشخصية لخدمة بعضهم البعض في شتى المجالات الحياتية الضرورية للبقاء البشري على الارض . حيث تقوم العلوم التخصصية في عملية التسخير بدور العامل المساعد في تطوير تلك العملية وتسهيلها خدمة للنظام الاجتماعي العام وافراده . ولم تتوقف فكرة التسخير على الاعمال اليدوية والاعمال القائمة على الجهد الانساني العضلي ، بل تعدى الى الجهد العلمي والفكري الذي يقوم به الانسان . ومن ذلك ، الجهد العلمي الذي يؤدي الى الاجتهاد في علوم الدين ، وبالخصوص الفقه والاصول . وعملية الاجتهاد هذه ، تعتبر جزءاً من نظرية التسخير ، فاجتهاد المجتهد وعلمه ينبغي ان يسخر كلياً لخدمة الامة ، بالتوافق مع حاجاتها وبالتناسب مع طموحاتها في انشاء نظام اجتماعي سياسي ديني متكامل .

ولكن الحركة الاجتهادية في الفقه والاصول قاست في العصور الاسلامية الاولى انعزلاً سياسياً ادى الى تحديد الهدف الاجتماعي من التعليم . فبدلاً من تعميم مفهوم التعليم وجعله حقاً لكل فرد سعت السلطات السياسية الحاكمة الى الحفاظ على مستوى من الجهل والتخلف الفكري السائد بين الافراد انذاك ، لان السلطات كانت تشعر ان نشر العلم بين افراد الامة سيؤدي الى هزم الكيان السياسي الظالم وتقويض اركانه .

³⁸ الكافي ج 1 ص 35.

³⁹ سورة الزخرف: الآية 32.

وكان من نتائج هذا الانعزال تقلص النظرية الاجتماعية للفقهاء الاسلامي ، وظهور الاتجاه الفقهي الذي يهتم بشؤون الفرد أكثر من اهتمامه بشؤون الأمة . وانصب اهتمام الفقهاء بالحث على تحصيل العلوم الدينية المتمثلة بالفقه والاصول وعلوم الحديث واللغة والمنطق بالقلة المختارة من الافراد ، بينما اهمل تعليم الافراد عموماً ، بل ان الأمة الاسلامية باتت على قسمين ، القسم الاول والاكبر سماهم الفقهاء بـ «العوام من الناس» وهم الذين لا يقرأون ، والثاني : وهم الطلبة والعلماء . وهذه التسمية في حد ذاتها تعطي انطباعاً ظاهرياً بان العلم في الاسلام انما وجد للخاصة فحسب ، وبقيّة الناس ينطبق عليهم اصطلاح العوام . وكأن التكليف الشرعي لا يحث المكلف على طلب العلم والتحصيل! ولا نشك ان اللوم في هذا الفكر المتخلف يقع كلياً على السلطات السياسية المنحرفة التي حكمت الأمة الاسلامية قروناً عديدة ، فسلبت من ايدي الفقهاء العدول كل ادوات السلطة التنفيذية ، وارادت للامة الاسلامية بجميع افرادها التخلف عن ركب العلم والحضارة ، حتى يتم لتلك الفئة المنحرفة السيطرة على مقدرات النظام الاجتماعي بشكل تام . ولا يحمل اصطلاح الفقهاء هذا غير معنى الاختصاص ، فسُمّي الفقهاء «علماء» لاختصاصهم بعلمي الفقه والاصول ، وسمي غيرهم «عواماً» لجهلهم بعلمي الفقه والاصول . ويكفيها ، لفهم موقف الاسلام من العلم وضرورة التعليم الجماعي للمسلمين ، ان نتذكر ما حصل في معركة بدر المظفرة من امر الرسول (ص) باطلاق سراح اسرى المشركين ، شرط أن يعلم الاسير الواحد منهم عشرة مسلمين القراءة والكتابة .

ولا ريب ان التأكيد على التعليم الجماعي كان قد ورد في احاديث اهل البيت (ع) في القرن الاول الهجري . فالامام علي بن الحسين في رسالته الحقوقية يدعو بصراحة الى منح الافراد حق التعليم ، ويعلق هذا الحق بواجبات السلطة السياسية التي من مسؤوليتها بناء النظام الاجتماعي ، ويقول (ع) : (واما حق رعيتك بالعلم ، فان تعلم ان الله قد جعلك لهم قيماً اتاك من العلم وولاك من خزانة الحكمة . . فان احسنت في تعليم الناس ولم تحرق بهم ولم تضجر عليهم زادك الله من فضله ، وان كنت منعت الناس علمك او حرقت بهم عند طلبهم العلم منك كان حقاً على الله عز وجل ان يسلبك العلم وبهائه ويسقط من القلوب محلك)⁴⁰ . ولكن تحديد المسار التعليمي الذي تنتهجه الدولة لا بد وان يكون مرتبطاً بخطة عامة ، يضعها متخصصون بشؤون التعليم ، تستهدف رفع المستوى الثقافي للامة الاسلامية . وهذا لا يتم الا بتصميم نظام تعليمي مبني على منهج علمي يساند الدولة الاسلامية في كل توجهاتها الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية . على ان يكون هذا النظام المدرسي قاعدة للانطلاق في شتى المجالات الحياتية المفترض ان يكون للمعلم فيها دور بناء . وارجو أن لا يختلط اصطلاح (المدرسة ونظامها) المستخدم في هذا الكتاب ، بالمدارس الدينية حسب النظام المعمول به في

⁴⁰ الخصال ج 2 ص 567.

الحوزات العلمية . بل المقصود من المدرسة العامة ، المؤسسة العلمية التي نشأت مع ظهور الدولة الحديثة والتي تتولى تعليم الصغار ، اللغة والعقيدة والفقہ والعلوم التجريبية حتى مرحلة البلوغ . والصغار هم كل افراد النظام الاجتماعي ، دون سن البلوغ ، الذين يعيشون في تلك البقعة من الارض ، ويطلق عليهم وعلى من سواهم اسم المجتمع الانساني .

ولا شك ان المدرسة في المجتمع الاسلامي تساهم في تطوير النظام الاجتماعي ، من خلال نقل المعرفة الاسلامية والانسانية الى اذهان الطلبة من الجيل القديم الى الجيل الجديد ، ونشر الفكر الذي يوحد توجهات المجتمع ، وتطوير شخصيات هؤلاء التلاميذ الذين سيحملون مشعل المسؤولية مستقبلاً ، وتأهيلهم لتحمل التكليف الشرعي ، وتمرينهم على الاعمال التخصصية ، وتعليمهم قواعد النظام الاجتماعي التي تربط الاسرة وافرادها ، بالمسجد والمدرسة والحكومة وساحة العمل المهني .

فعلى نطاق نقل المعرفة ، فان عملية التعليم لا بد لها من الاستمرار عبر الاجيال المتعاقبة ، وهذا ما يميز المجتمعات الانسانية عن غيرها من التجمعات الحيوانية . ففي كل حقبة زمنية تتراكم كمية هائلة من المعلومات الاجتماعية والتجريبية ، لا بد وان تنقلها ايادي الجيل القديم الى نظائريهم من الجيل الجديد . وهذا الانتقال لا يساهم في بقاء الحياة الانسانية في تطور مستمر فحسب ، بل يساهم في بقاء القيم الاخلاقية حية في الضمائر مهما طال زمن انتشارها . ولا يمكن نقل هذه المعارف وافكار الانسانية الا عن طريق المدرسة والنظام التعليمي المعترف به اجتماعياً .

ولما كانت ارض الاسلام تجمع الاقليات العرقية المتعددة ، يصبح للمدرسة دور اعظم في توحيد توجهات افراد المجتمع وتهذيب تطلعاتهم وآمالهم في حياة اسلامية رغيدة . فلا بد ان تكون اللغة العربية الفصحى ، باعتبارها لغة القرآن ، اللغة الاساسية لجميع افراد الأمة ، كما ورد في الرواية السابقة المنقولة عن الامام الصادق (ع) ، واللغات المحلية الأخرى لغات ثانوية تدرس جنباً الى جنب مع اللغة العربية الأم . وكل ما يدرس في المدرسة العامة في النظام الاسلامي من علوم وتاريخ ودين يساهم في توحيد الدولة من الناحية الثقافية والسياسية والاجتماعية . لان عملية انصهار هذه العلوم في اذهان التلاميذ ستخلق افراداً يملكون كل المؤهلات في بناء دولة علمية ، موحدة ، متطورة ، قائمة على اساس نظام اخلاقي وديني عظيم .

واذا كان الفرد محط اهتمام الدراسات الفقهية بجانبها العبادي والاجتماعي ، فالمدرسة العامة لا تقل شأنًا من ناحية اهتمامها بالفرد منذ الطفولة ، بل ان الفقه يهتم بالمكلف فحسب ، اما المدرسة فتتعمق بالطفولة وما بعد البلوغ . ولو طلب منا وضع تصور عام للنظام التعليمي في دولة اسلامية ، فان النظام التالي سيكون اقرب الافتراضات الى الواقع العملي . فالمرحلة الابتدائية والمتوسطة ، وهي دراسة تسع سنوات من السن

السادسة وحتى الخامسة عشرة من العمر ، ضرورة للغاية لكل فرد من افراد المجتمع الاسلامي . ولما كانت الدولة تحاول ضمان رفاهية الافراد ، وتؤكد على حسن سلوكهم ، فانها تستطيع ان تتدخل بشكل مباشر لتطبيق برنامج التعليم الاجباري بسن القوانين المناسبة . وهذه المرحلة الابتدائية اساسية في تعليم الفرد القراءة والكتابة ومبادئ العقائد والعبادات والحساب والعلوم الحديثة والفنون . واذا ما تمت هذه المرحلة فان الطلبة سيختارون احدى ثلاث مدارس تحدد مستقبلهم وهم على ابواب البلوغ وهي المدارس الدينية (الحوزات العلمية) ، والمدارس المهنية ، والمدارس النظرية . فالمدارس النظرية تؤهل الطلبة دخول الجامعات العلمية ودراسة علوم الكيمياء والفيزياء والرياضيات والطب والهندسة وعلوم الاجتماع والاداب بكافة اقسامها . والمدارس المهنية تؤهل طلبتها لدخول عالم العمل المستند على الاحتراف والعلم ، فاذا كانت المدرسة المهنية اعدادية زراعية مثلاً فانها تؤهل الطالب للانطلاق في عالم الزراعة عارفاً اهمية زيادة الانتاج وطرقه ، عالماً بنوعية التربة وضرورة استخدام المواد المصنعة في تخصيبها . واذا كانت المدرسة المهنية اعدادية صناعية مثلاً فانها تؤهل الطالب للعمل الفني باتقان وابداع . وهذه المدارس المهنية تساهم في تنمية الثروة وزيادة الانتاج ، وتكشف عن قابلية الفرد في العمل الانتاجي ، والابداع في ميادين الاختصاص ، وتقلل من نسبة البطالة بين الافراد . اما المدارس الدينية فانها ستستقبل الطلبة الوافدين اليها على أتم وجه . فدراسة تسع سنوات في اللغة وعلومها ، والعقائد والعبادات ، والكيمياء والفيزياء والحساب ستفتح بالتأكيد ذهنية الطالب وآفاقه في التفكير ، ويدخل الطالب اليافع ، الحوزة العلمية وهو على استعداد لمضم المواد الفقهية والاصولية هضماً يساعده على ربط المسائل النظرية بالواقع العملي . فدراسة مبادئ الكيمياء والفيزياء والفلك وعلم التربة لها علاقة مباشرة بالمسائل الفقهية . فنستفيد من علم الكيمياء في مسائل طهارة الماء ، وحلية الشحوم ومواد الغسيل وتركيب الادوية ، والمواد الكيميائية الحديثة المستخدمة في صناعة الاطعمة المعلبة والمحففة . ونستفيد من علوم الطب في تشريح الجهاز البولي والتناسلي للذكر والانثى لنتفح بها في مسائل الحيض والاستحاضة والنفاس والجنابة ، وعلامات الموت عن طريق انقطاع نشاط القلب او الدماغ . ونستفيد من علم التربة وعلم النبات في معرفة الارض والنباتات التي يجوز السجود عليها مثلاً . ومن علم البيولوجي نستفيد في معرفة انواع الحيوانات المأكولة والاسماك بانواعها . وارتباط الطالب الحوزوي بالنظام الاجتماعي وافراده بمنحه قدرة على فهم المجتمع ومشاكله . وما دور الفقه الا بناء النظام الاجتماعي وبيان تكاليف الافراد ، حتى يتوجه الجميع نحو عبادة الخالق عز وجل عن طريق العلم والمعرفة .

ولا شك ان دور المدرسة العامة في المجتمع الاسلامي لا يتوقف عند معرفة اللغة وفهم العلوم التي تتعلق بها ، بل ان دروها يتعدى الى فهم دور الانسان في الحياة الاجتماعية ، وفهم علاقته بالكون والخالق ،

وفهم الانسان لذاته من خلال العلوم الفلسفية والتطبيقية . والمكلف ، اضافة الى الفقيه او طالب علوم الفقه ، عليه ان يعرف الحد الادنى من مبادئ تشريح جسم الانسان ، ذكراً واثناً ، حتى يستطيع ان يفهم كيفية خلق الجنين وعلاقة ذلك الخلق بالمرأة والخالق والحياة ، ويفهم معاني الطهارة من خلال فهمه لحركة اعضاء الجسم الداخلية والخارجية . واذا كان المكلف امرأة فعليها ان تعرف الحد الادنى من تشريح جسم المرأة وبيولوجية الدورة الشهرية لابتنائها بدماء الحيض والاستحاضة والنفاس . وكل هذه العلوم والمعارف تثري النظام الاجتماعي بثقافة علمية وترفعه الى اعلى المستويات الانسانية . ولذلك ، فان المدرسة العامة ينبغي ان تلتفت الى وضع هذه المواد العلمية في مناهجها العامة خدمة للنظام الاجتماعي من خلال بناء الافراد بناءً علمياً سليماً ، على قاعدة ان العلم بقسميه النظري والعملي يجب ان يصبّ في خدمة النظام الاجتماعي .

ولا ريب ان المدارس تفتح ابواباً للنقاش العلمي والنقد البناء ، فالرد على النظريات الفاسدة والآراء المنحرفة يوفر للطلبة فرصاً ثمينة لممارسة النقد البناء المستند على الاسس العلمية . بل ان المدرسة تستطيع ان تهيب لطلابها جواً من العمل السياسي والاجتماعي ، حتى تؤهلهم لاحقاً لدخول المعترك الاجتماعي دون عراقيل .

واخطر عمل تقوم به المدرسة الاسلامية ، هو تعليم تلاميذها معنى العدالة الاجتماعية . وهذا هو الفرق بين النظام المدرسي في الاسلام ونظيره في الرأسمالية . ففي حين يقوم النظام الرأسمالي بتعليم الطلبة قيم الطبقة العليا ، ويفصل المدارس على اساس اللون ، ويدعي ان نظامه الاجتماعي افضل من كل الانظمة الاجتماعية في العالم ، تقوم المدرسة الاسلامية بتعليم ابنائها قيم العدالة الانسانية ، والغاء الفوارق الطبقيّة ، وسواسية الافراد امام الشارع والشرعية . وان كانت افضلية الاسلام كمنهج للحياة تتحدث عن نفسها دون محدث ، الا ان هذا الدين يدعو معتنقيه الى دراسة بقية الانظمة الاجتماعية والدينية وفهمها ومقارنتها بالاسلام . على عكس النظام الرأسمالي الذي يدّعي بان الانظمة الاخرى لا سبيل لها في تحقيق السعادة البشرية ، فالسعادة العظمى لا تتحقق الا في العيش تحت سقف النظام الاجتماعي الرأسمالي!! ولكنهم ينسون ان سعادة الثري الابيض الكاثوليكي قد جاءت على حساب عذاب الفقير الملون البائس .

ولم يدعُ الاسلام الى جعل التعليم مطية رغبات طبقة دون اخرى لتحقيق التسلط على القوة السياسية ، وكسب الثروة ، وتحقيق الرفعة الاجتماعية . بل اراد من التعليم ، فهم الانسان موقعه في الحياة الاجتماعية ، ومعرفة دور الدين في بناء النظام الاجتماعي لتحقيق سعادة الفرد وتثبيت اسس العدالة الاجتماعية . ولما كان العلم شريفاً في نفسه ، فان الشارع حث جميع الافراد على تحصيل المقدار المتميز منه ، حتى يمنح الانسان فسحة للتفكير في موقعه الاجتماعي الحياتي وموقعه في الكون ، وما يترتب على ذلك من

معارف ربانية توصله الى معرفة خالقه وصانعه . وتعلم الفنون والخبرات بشتى الوانها ينفع النظام الاجتماعي وافراده ، ولا يمنح امتيازاً لفرد دون آخر ، لان عدالة نظام الاجور في الاسلام هي صمام الامان الذي يمنع بموجبه نشوء نظام طبقي مشابه للنظام الطبقي الرأسمالي . ولما كانت الدولة في المجتمع الاسلامي مسؤولة عن رعاية الافراد وحمائتهم والاهتمام بهم ، فان لها الحق في تحديد الاجور وتعيين الحد الادنى والحد الاعلى للمكافآت الاجتماعية . على عكس النظام الرأسمالي الذي يعين حداً ادنى للاجور ولكنه لا يضع علامة للحد الأعلى مما يفسح المجال لنمو الطبقة الرأسمالية المتحكمة بشؤون المجتمع والسلطة السياسية واستفحالها .

ولما كان زمام السلطة وتنظيم أمور الناس منوطاً بالامام المعصوم او نائبه في زمن الغيبة ، فان الاسلام ، دفعاً لنشوء طبقة ثرية حاكمة ، ألزم العلماء والفقهاء العدول بالتزام التقوى ومخافة الله والزهد في الحياة الدنيا ، وخير دليل نستدل به في هذا المقام ثلاثة اقوال ، اولياها لرسول الله (ص) والثالث لعلي بن ابي طالب (ع) . فقد ورد عن رسول الله (ص) قوله : (ما اتخذ الله نبياً الاّ زاهداً)⁴¹ ، وقوله (ص) ايضاً : (يا علي ان الله تعالى زينك بزينة لم يزين العباد بزينة هي احب اليه منها ، زهدك فيها ، وبغضها اليك ، وحب اليك الفقراء فرضيت بهم اتباعاً ، ورضوا بك اماماً)⁴² . وقول الامام اميرالمؤمنين (ع) : (ان من اعون الاخلاق على الدين الزهد في الدنيا)⁴³ .

وهذا الحث بترك الدنيا وحطامها ، يوجب اقامة نظام سياسي نزيه لا يطمع بمال الناس ولا حقوقهم الشرعية . وهذه الترايبية وهذا الزهد الذي اوجبه الاسلام على الرسل والائمة وعدول الفقهاء تمنعهم نظرياً من استئثار ابنائهم وذويهم في التسلط على حقوق الناس واقواتهم ، بل ان مواقع ابناء هؤلاء في النظام الاجتماعي لا تتميز عن مواقع غيرهم من ابناء عامة الناس . واذا كان تدخل الدولة في المجتمع الاسلامي يضمن العدالة ، فان من حق الدولة ان تمنع انشاء المدارس الخاصة ، لانها تساهم تدريجياً بانشاء الطبقة الرأسمالية على مدى الاجيال المتعاقبة . ولا شك ان توحيد النظام التعليمي في الدولة الاسلامية سيساهم في تقليص الفوارق بين الطبقة الاجتماعية حتى يوحدتها ضمن طبقة واحدة متفاوتة الدرجات .

ولما كان الاسلام قد اوجب على الاغنياء دفع الحقوق الشرعية من صدقات واخماس وزكوات وكفارات ونحوها ، واوجب ايصالها الى الفقراء ، فان الطلبة الفقراء سيتفرغون للدرس والتحصيل لانتفاء الشاغل المادي والنفسي . وعلى هذا الصعيد فان التنافس بين الطلبة الاغنياء والطلبة الفقراء سيتم على اساس

⁴¹ مستدرک الوسائل ج 2 ص 333.

⁴² البحار ج 40 ص 330.

⁴³ الكافي ج 2 ص 138.

الذكاء والجهد والاجتهاد وليس على اساس المال والثروة كما هو الواقع في النظام التعليمي الرأسمالي .

« المدرسة » في النظام الاجتماعي

واذا كان ايمان الاسلام بحق الفرد في التعليم ايماناً راسخاً ، فان تدخل الدولة في المجتمع الاسلامي بضرورة فرض التعليم الاجباري لحد المرحلة المتوسطة يجب ان يكون حتمياً ، للأسباب الثلاثة التالية :

اولاً : لان الفرد يعتبر قاصراً في سن الطفولة ، فعلى وليه الاهتمام بمصلحته العلمية .

ثانياً : لما كان ولي امر الأمة ، الامام او نائب الفقيه الجامع للشرائط في زمن الغيبة مسؤولاً عن بناء الدولة الاسلامية بناءً محكماً في المجال الاقتصادي والسياسي والعسكري ، وجب عليه تهيئة مقدمات بناء الدولة من خلال بناء الافراد علمياً وثقافياً قبل البلوغ .

ثالثاً : ان العلم بكل فروعه والوانه ، يقرب المكلف من الله عز وجل ، ويجعله اكثر تطبيقاً للاحكام الشرعية ، واكثر فهماً لدور الدين في النظام الاجتماعي .

ولا شك ان التمييز بين الافراد في النظام التعليمي الاسلامي يجب ان يحى اصلاً ، لان ديننا كالاسلام يحاول تثبيت اسس العدالة الاجتماعية بقوة القانون ، لا يمكن ابداً ان يحرم الافراد من حقوقهم المشروعة . فالتعليم حق مشروع لكل فرد ، والمساواة في تحصيله اصل من أصول العدالة الاجتماعية . بل ان المساواة العامة التي يأمر بها الاسلام في امتلاك الثروة واستثمارها في شتى مجالات الحياة العملية ، تعتبر دعماً حقيقياً للمساواة في نظام التعليم العام . على عكس «المساواة» التي يدعيها النظام الرأسمالي فيساوي بين الافراد البيض من الاصل الاوربي القوقازي فحسب ، ويحرم الطبقات الاخرى من النعم الاجتماعية . اما الاسلام فانه لا يرفع الأبيض على الاسود ولا الاسود على الابيض ، بل ان الكل متساوون في الحقوق والواجبات . ومدارس القواعد النحوية ، ومدارس الطبقة العليا ، ليس لها وجود في النظام التعليمي الاسلامي ، لان المجتمع القائم على اساس العدل والمساواة لا يقدم على حرمان مدرسة ما من حقوقها الاساسية لاختلاف الوان تلاميذها ، ويمنح مدرسة اخرى امتيازات وتحويلات واسعة بسبب موقعها الجغرافي القريب من منازل الاغنياء . فبناء الشرائح المختلفة في النظام الاجتماعي الاسلامي يقفون جنباً الى جنب مع اخوانهم ، تماماً كما يقف الحجيج خلال ممارستهم شعائر الحج جنباً الى جنب في عرفات ، بالرغم من اختلاف الواهم وثرواتهم وقومياتهم .

ولابد لنا من معرفة حقيقة مهمة وهي ان المدرسة بكل تخصصاتها وفروعها العلمية والانسانية والمهنية ، انما هي ضمان لمستقبل الاسلام ، ونجاح التجربة الاسلامية في تكامل النظام الاجتماعي لقيادة البشرية المعذبة وايصالها الى شاطئ السلام . ولا شك ان المدارس والجامعات الاسلامية ينبغي ان تساهم

مساهمة فعالة في حلّ المشاكل العلمية والاجتماعية والاقتصادية التي يتلى بها النظام الاجتماعي . فما فائدة المدرسة التي لاتساهم في التفاعل الاجتماعي ولاتفهم مشاكل الافراد ولا تحاول حلّها؟ الم تكن الدراسات النظرية باباً من ابواب الدراسات التطبيقية وفرعاً من فروعها؟ فما فائدة دراسة تركيب الذرة ما لم تترجم هذه الدراسة الى تصنيع مواد كيميائية عملية تنفعنا في التنظيف والتطبيب والتسميد؟ وما فائدة دراسة الظواهر الاجتماعية والانحرافات ما لم يوضع منهج واضح المعالم لترشيد توجهات المجتمع الاسلامي وطموحاته وآلامه ومشاعره؟

واذا كانت النظرية السياسية الرأسمالية قد نجحت في فصل المدرسة عن الكنيسة في المناهج التعليمية ، وتركت للكنيسة تنصير الافراد وتعليمهم دينهم ، فان النظام التعليمي الاسلامي ينبغي ان يؤسس في كل مدرسة مسجداً للصلاة ، وان تندمج المدرسة بالمسجد ، اندماجاً حقيقياً يؤدي الى تهذيب المدرسة اخلاقياً ، والى رفق المسجد بالطاقت العلمية الشابة المؤهلة لا للعبادة والدعاء والتسيب فحسب ، بل على اتم الاستعداد للدفاع عن الدين والوطن ، وحماية العقيدة بالعلم والسلاح .

وتقع مسؤولية تمويل صرفيات المدارس العامة على الدولة ومؤسساتها المالية ، فلا يحق لافراد المحلة السيطرة على توجيه شؤون المدرسة ، لأن ذلك يسبب تفاوتاً في المستوى التعليمي بين المناطق الغنية والمناطق الفقيرة . ولكن هذا لا يمنع من انشاء مجالس للاباء والأمهات لتوثيق الصلة بين المدرسة وعوائل الطلبة لتدارس ومناقشة مشاكل التلاميذ والبحث عن افضل الطرق لزيادة التحصيل ، ورفع مستوى التفاعل الاجتماعي في المؤسسات التعليمية .

وبطبيعة الحال ، فان الهدف الاعلى من التعليم هو غرس العلم في اذهان البراعم الشابة ، وتدريبها على القراءة والكتابة والتفكير والتحليل ونقد الواقع نقداً موضوعياً بناءً . اما (الدرجات) فليست بحد ذاتها هدفاً بل هي وسيلة رمزية لمعرفة قدرة الطالب على التحصيل . فينبغي ان يكون المدار والاصل في مناهج المدارس العامة ، مستوى المادة الدراسية والتحصيل النوعي من العلوم المختلفة ، فالكمية ليست ذات مغزى اذا افتقدت العمق والتركيز . واذا كان المدار في الدراسة العامة التحصيل العلمي وليس كسب الدرجات ، فقد نجح النظام التعليمي في بناء الطلبة بناءً اكااديمياً سليماً . اولاً : لان هذا النظام يفتح للطلبة افقاً واسعة للتحصيل . ثانياً : يساعد النظام على ازالة الضغط النفسي الذي يواكب كسب الدرجات عادة . ثالثاً : يساهم في محو عملية ارتكاب الغش المنتشرة بين طلبة النظام الرأسمالي من الاساس . وعليه ، يصبح الطالب جزءاً فعالاً من النظام الاجتماعي الذي ساهم في رفد المجتمع بالابداع والانتاج والاستقرار والسعادة . وليست المدرسة مجرد مؤسسة مهنية تهتم بالكتاب والقلم ، بل هي نظام اجتماعي قائم بذاته ، فلهذه

البنية التعليمية قوانينها ، وقيمها ، وتقاليدها ، ومناسباتها ، واحتفالاتها الخاصة بها . فالصف الواحد يمثل تركيبة نموذجية لمختلف الشرائح الاجتماعية ، والطلبة المنتسبون لذلك الصف يعكسون شتى انواع الحرف والمهن والمذاهب والعرقيات ، فابناء العامل والمهندس والطبيب ، والمسلم والنصراني ، والعربي والتركماني والكردي والفارسي يجلسون جنباً لجنب تجمعهم غاية واحدة وهي الحصول على العلم . وعلى هذا الاساس نستطيع اعتبار الصف المدرسي من اكثر اماكن التفاعل الاجتماعي حيوية في المجتمع الانساني . وعلى ضوء ذلك ، فانه لا بد ان يكون للمدرسة تنظيم اداري يدير شؤونها ويحدد ويضبط صلاحيات العاملين فيها ، ويحدد انتساب الطلبة الى صفوفها باعتبار العمر او التخصص او القابلية .

وحتى تستطيع المدرسة تطبيق نظامها وتسيير امورها بدقة لا بد لها من انشاء نظام محكم للسيطرة على سلوك الطلبة بالتأديب والتهذيب ، واشاعة اجواء الانسجام والتوافق بين التلاميذ والاساتذة ، والترغيب على التحصيل والاكتماب والتعلم . ولا بد ان يكون توجه المدارس الابتدائية والمتوسطة منصباً على تعليم التلاميذ الاداب العامة ، والنظام ، والنظافة ، وحب الناس ، والطاعة بطرفيها ابتداءً من طاعة الوالدين وانتهاءً بطاعة الله سبحانه وتعالى .

واذا كانت المنافسة فقط ، في النظام التعليمي الرأسمالي ، الاصل في النجاح الاكاديمي ، فان النظام التعليمي الاسلامي يشجع التنافس على اساس العلم ، والتعاون على اساس الاخوة والمحبة والاجتماع . وعلة نجاح التنافس الاسلامي ، في عملية التعليم هو نزعة الانسان نحو تحقيق الكمال ضمن اطار التعاون الاجتماعي ، على عكس التنافس الذي تدعو اليه النظرية الرأسمالية والذي يهدف للحصول على الدرجات دون النظر الى مستوى التحصيل العلمي . وعندها لا تمنح المدرسة الاسلامية العامة الافراد فرصة للتحصيل والاكتماب فحسب ، بل تساعدهم على تقويم سلوكهم وتصحيح دوافعهم عندما يقتحمون ساحة العمل في المجتمع الكبير . ولكن المدرسة وحدها لا تعمل المعجزات ، بل ان العائلة والمسجد يلعبان دوراً اساسياً في اسناد دور المدرسة في خلق جيل مبني على اسس العلم والاخلاق والعقل والفهم الاجتماعي . فيقوم الاب او الولي في العائلة الاسلامية بتهذيب الاولاد على اساس طاعة الكبير والتحنن على الصغير ، وهو ما يوصل الطالب الى احترام المدرسة باساتذتها وطلبتها ، مما يؤدي في النهاية الى اطاعة النظام الاجتماعي والمساهمة في بنائه وتنميته . ويقوم المسجد بتربية الافراد ، بضمنهم الطلبة ، على عبودية الخالق عز وجل ومسؤولية الالتزام بالتكاليف الشرعية ، عن علم ووعي ، وهو ما يقضي في النهاية الى تقويم سلوك الافراد ، واندفاعهم نحو انتهال العلم ، لبناء المجتمع الانساني السعيد .

التعليم والعدالة الاجتماعية في الاسلام

وتنعكس العدالة التي نادى بها الاسلام وحث على تحقيقها بين جميع الافراد ، على النظام التعليمي بالخصوص . فنظرياً يحث الاسلام جميع الافراد القادرين من الناحية العقلية ، على الدخول في المدارس العامة من المرحلة الابتدائية ولحد وصولهم الى المستوى التخصصي المهني او العلمي . وفي المرحلة الاخيرة يلعب الجهد والذكاء دوراً أساسياً في مساعدة الافراد على حجز مقاعدهم الدراسية في الجامعات العلمية والادبية والمعاهد الفنية . فالطلبة المتفوقون في العلوم البيولوجية والكيميائية يدخلون كليات الطب والعلوم المتعلقة بها . والطلبة المتفوقون في الرياضيات والعلوم الهندسية يدخلون كليات الهندسة والعلوم المتعلقة بها . والمتفوقون في الاجتماعيات يدخلون كليات العلوم الاجتماعية ، وهكذا . وهذا المقياس في حجز مقاعد الجامعات ، اعدل من مقياس النظام الرأسمالي الذي يشترط العامل الطبقي ولون البشرة اساساً في دخول الجامعات العريقة . فالنظام التعليمي الاسلامي يشجع الطالب الفقير على شق طريقه بنجاح الى ارقى الجامعات في الدولة بغض النظر عن لونه وطبقته الاجتماعية . بل يستطيع ان يتميز عن اقرانه الاغنياء لان الفقر لا يشغله عن التحصيل ، وهو على اطمئنان بان عائلته يعيلها النظام الاجتماعي او الدولة عن طريق الحقوق الشرعية . فلا يصرفه الفقر عن الدرس ، ولا تجبره حاجة العائلة الاساسية على ترك التحصيل . واذا ظهرت بوادر انحلال النظام الطبقي خلال مراحل التعليم ، اصبحت فرص انتعاش النظام الاجتماعي اوسع ، واصبح المقياس في تسيير النظام الاجتماعي عن طريق الجهد والذكاء اكثر مما هو عليه الحال في النظام الرأسمالي . ولا يختلف اثنان على ان الذكاء قدرة علمية تحصيلية تتواجد عند الفقراء كما تتواجد عند الاغنياء .

ومع ان الاسلام يقدم نظاماً عادلاً في توفير الفرص التعليمية لكل القادرين على التحصيل ، الا انه لا ينكر وجود التفاوت في قابليات الفهم والادراك والابداع لدى الافراد . فالافراد عموماً متفاوتون في مستوى فهمهم العلمي وابداعهم وانتاجهم . ولما كانت هذه القابليات متفاوتة ، فان المكافأة على الجهد المبذول يجب ان تتفاوت من فرد الى آخر . ولكن هذا التفاوت في الاجور ينبغي ان لا يخلق طبقات اجتماعية متفاوتة بل طبقة واحدة مختلفة الدرجات . وهذا النظام التعليمي الرائع يضمن قضيتين اساسيتين ، الاولى : تنشيط فرص الابداع لكل فرد ، والثانية : العدالة الاجتماعية لكل الافراد . فلا يستطيع الذكي بكل ما اوتي من قوة عقلية ان ينشئ طبقة متميزة به عن الآخرين ، تماماً كما لا يستطيع الثري مهما اوتي من قوة مالية انشاء طبقة متميزة به وبأقرانه ، لأن ذلك يدعو الى الظلم الذي يرفضه الاسلام .

واذا ثبتت اسس العدالة الاجتماعية بقوة ، كما جاء بها الاسلام ، اصبحت القاعدة التي يتعامل بها النظام التعليمي المرتبط بالنظام الاجتماعي الاسلامي ، مع جميع الطلبة هي قاعدة العدالة والمساواة . فاذا كان

من حق كل فرد الحصول على تعليم ذي مستوى معين ، فلا يمكن ان تكون الاجور الجامعية حينئذ عائقاً في دخوله الجامعة المؤهل لها . وحتى اذا كانت للجامعة اجور رمزية ، كان المدار في ذلك قابلية الفقير على تسديدها . واذا تم اشباع الحاجات الاساسية للعوائل الفقيرة ، فانها ستأمل من شبابهما الدخول في المعاهد العلمية لينفضوا عن اسمهم غبار الفقر والجهل . وتصبح تلك العوائل حينئذ عوناً على رفع العبء الذي كان يتحمله الشاب الفقير تجاه عائلته المحرومة ، وسنداً لتحفيزه على اكمال دراسته العلمية . واذا كانت بيوت الفقراء لا تهيئ اجواءً دراسية مثالية لشبابها ، تحتم على المدارس العامة والجامعات تهيئة افضل المكتبات وقاعات الدراسة الفردية والجماعية لطلبتها ، وتخطيط نظام متقن للنقل العام من البيوت الى المدارس ، حتى يتضاءل البون الشاسع بين الطلبة الاغنياء والفقراء في خلق الاجواء السليمة للتحصيل والمذاكرة .

واذا كان الاسلام في نظامه القضائي يعاقب المفترى بالتعزير الذي يراه الحاكم الشرعي ، فان تطبيق الحدود سيلغي مشاكل الالتصاق التي يستعملها الافراد من الطبقة العليا لوصم الطلبة الفقراء ، بمختلف الاتهامات . وهذا التطبيق سيساهم في فسخ المجال للافراد على التركيز على قابليتهم الذكائية ، واستجماع قواهم الداخلية للفهم والادراك ، وشق طريق التحصيل بكل نجاح ، على عكس النظام الرأسمالي الذي يوصم الفقراء بمحدودية الفهم والتخلف عن ادراك الحقائق والمفاهيم ، مما يؤدي الى تخلفهم من الناحية العلمية عن اقرانهم من افراد الطبقات العليا .

واذا كان التغير المستمر في الوضع الاجتماعي الرأسمالي قد ساهم في ارتفاع نسب الطلاق ، والانفصال ، والولادات غير الشرعية فان ذلك المجتمع سيواجه مصيراً قائماً على المستوى التعليمي ، بخصوص انخفاض المستوى العلمي للتلاميذ المتضررين بهذا التغير الاجتماعي . لان العائلة المستقرة والبيت السليم بوجود الابوين يساعدان على استقرار شخصية الطفل وتهذيبها وتأديتها ، ويساهمان في تقدم الطفل في الميادين العلمية والاجتماعية . ولما كان النظام الرأسمالي لا يميز ، لحد الآن ، بين واجبات البيت وواجبات المدرسة التأديبية ، فكيف نتوقع من الطفل النمو والتطور عقلياً واخلاقياً ، خصوصاً اذا كان البيت لا يقوم بواجباته الاخلاقية ولا تقوم المدرسة بواجباتها التأديبية؟ وهذا الاحباط في فهم دور البيت والمدرسة يُعدّ من اخطر مساوئ النظام التعليمي في الحضارة الرأسمالية الحديثة .

ولا نشك ان البيت في الاسلام هو مصدر الحب والرحمة والتهذيب والتأديب ، والمدرسة الاسلامية تشارك البيت في كل ذلك ، ولكنها اضافة الى ذلك لا تقدم للطالب علماً نظرياً فحسب ، بل تقدم له تفسيراً للمعاني الاخلاقية ، وتحليلاً للنظام الاجتماعي وواجبات الافراد وحقوقهم فيه . واذا كان الاب يقوم بدور المهذب والمؤدب لابنائه وبناته ، فان المعلم يقوم اضافة الى التعليم ، بدور مشابه لدور الاب في تقويم وتهذيب

سلوك الطلاب .

ولا يقر الاسلام نظام تكافؤ الفرص فحسب ، بل يهيئ الافراد تهيئة شاملة للمنافسة العلمية القائمة على اساس الجهد والذكاء . فيزيل اولاً كل اسباب التعويق الاجتماعي لطلب العلم من فقر وعدم اشباع الحاجات الاساسية ، فيأخذ حقوق الفقراء ويرجعها اليهم ، ويلغي النظام الطبقي العائلي ، ويشبع حاجات الافراد جميعاً ويوفر لهم مستوى واحداً من التعليم الابتدائي والثانوي لا يختلف فيه الفقير عن الغني . ثم يضع هؤلاء المتسابقين في ميدان العلم على خط البداية ، ويهتف بهم ، تسابقوا على بذل الجهد ، فان سبق احدكم الآخر فانما يفوز بجهد وقابليته . والاسلام بهذا النظام الرائع لا يثبت عدالته بين الافراد فحسب ، بل يبرز نظامه المنسجم مع طبيعة الحياة الانسانية التي خلقها الباري عز وجل ، ويربطها بالنظام الكوني المبني على اساس الدقة والتنظيم والعدل . على عكس النظام الرأسمالي الذي يزج بالمتسابقين في ميدان العلم غاصباً نظره عن المعوقات الاجتماعية التي وضعها للبعث منذ البداية ، كتراكم الثروة لدى طبقة وحرمان الطبقات الاخرى ، وتسليح الاغنياء بافضل النظم العلمية وحرمان الفقراء منها ، وحصص الجامعات الراقية بالنخبة من افراد الطبقة الرأسمالية من خلال رسم مستقبل مشرق لهم وهم في مهد الطفولة .

ويجب ان نلتفت الى مسألتين في حاتمة حديثنا عن النظام التعليمي العام في المجتمع الاسلامي ، وهما :
اولاً : الاهتمام بدور المعلم في النظام التعليمي ومكافأته بصورة تناسب مع ذلك الاهتمام والاحكام . فقد وردت روايات كثيرة عن اهل البيت (ع) في فضل العالم الذي يقوم بدور التعليم . ولا ريب ان اكرام المعلم هو اكرام للعلم والفكر ، ورفع لمستوى التحصيل ، واسناد للنظام الاجتماعي . فدور المعلم كدور العامل في بناء الدار ، فاذا كان البناء سليماً ثبت الدار امام الرياح والعواصف . وكذلك المعلم ، اذا كان مخلصاً صادقاً في تعليم الجيل الناشئ ، فانه يؤسس في عقول تلاميذه اساس الحياة الاجتماعية القائمة على اساس التعاون والتآزر ، ويغرس في نفوسهم التوجه نحو خالق الانسان ومبدع الكون في الشدة والرخاء ويعلمهم حب الدين والوطن والدفاع عن العقيدة والمبدأ .

ثانياً : وضع المناهج التعليمية على اساس الحاجات الاجتماعية . فما فائدة العلم النظري الذي لا يساعد المجتمع الانساني على فهم المشاكل الاجتماعية؟ فاذا كان النظام الاجتماعي مبتلياً بمشاكل التدخين مثلاً ، فيجب ان تساهم المؤسسات التعليمية بدراسة هذه الظاهرة وتدريب التلاميذ اضرار هذا الامر باستخدام مختلف العلوم التجريبية المبتكرة . واذا كانت البلاد مبتلية بارتفاع حوادث السيارات مثلاً ، فيجب ان تساهم المؤسسات العلمية في دراسة هذه المشكلة دراسة دقيقة ، والخروج بنتائج عملية ، كضرورة تعليم الطلبة في المدارس قيادة السيارات بامان مثلاً ، وتعليمهم نظام عبور المشاة ، وكيفية التوفيق بين الانسان

والمكائن الحديثة في عالم اليوم . ومحاولة ربط العلوم الحديثة بالتغير الاجتماعي لها مدلولات ذات اثر عظيم في منفعة النظام الاجتماعي ، وما العلوم النظرية التي تدرس في المدارس الا وسيلة لفهم وتطوير العلوم التجريبية التي تخدم المجتمع . ولا شك ان النظام الاستكباري الرأسمالي لا يروقه تطبيق العلوم النظرية بما يناسب حاجات المجتمع الاسلامي ، لان ذلك التطبيق يساهم في تقديم النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للاسلام ، ويُبرزُ تشجيع الاسلام للعلم والنظام باجلى صورته مما يؤدي الى اعجاب الانسانية المعذبة بمضمون الرسالة الاسلامية في ازالة التخلف والتبعية عن نفس الانسان ، وهذا ما يحشاه كل رأسمالي جشع يطمع في زيادة حصته من المال على حساب حصص الفقراء والجياع والبائيسين والمحرومين .